المحاضرة الحادية عشر : خصائص الفعل التاريخي

الفعل التاريخي ومميزاته

تمهيد

من الواضح جدا أن لكل علم خصائصه التي يتميز بها عن غيره، وعلم التاريخ واحد من هذه العلوم، فإذا اشترك مع غيره في الموضوع فإنه لا يشترك معهم في المنهج، وإذا اشترك معهم في المنهج، فليس بالضرورة أن يسترك معهم في بنية أفعاله، ومن ذلك نتساءل: ماهي الخصائص المميزة للفعل التاريخي؟

أ ـ الخصائص الفردية للفعل التاريخي:

1ـ الوعي: لقد عدت الفلسفة منذ القديم، بأن الوعي هو الخاصية الجوهرية، التي تميز الإنسان عن باقي الأشياء والكائنات الأخرى، فالوعي إذن فعل مصاحب لسلوك الإنسان وأفكاره، وهذا ما يسمى عادة بالوعي التلقائي، نظر لعفويته.[1] ومن الخصائص الأساسية للفعل التاريخي الوعي، ولعله الأهم، حيث لا يستقيم الفعل التاريخي إلا إذا كان صانعه واعيا تمام الوعي بذاته، وبما هو مقدم على فعله، مدركا كالقصد منه، ومتوقعا لنتائجه، ومن هذه الخاصية نستثني الأفعال التي لم يمتلك عنها القائمون بها وعيا كاملا، وذلك راجع بالأساس إلى وقوع الفعل التاريخي في هذه الحالة، إلى أي تأثير ليكون سدا منيعا بين الفعل التاريخي ولحظة الوعي به، حيث لا يدرك الفاعل تبعات فعله، ومنه يمكن القول أن ملكة الوعي هي التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، باعتبار أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يدرك ماضيه وحاضره ومستقبله، وأن لحظة الوعي هي لحظة مفصلية في تاريخ الإنسان وحضارته. فالوعي إذن هو إدراك المرء لذاته، وأحواله، وأفعاله، إدراكا مباشرا، وهو أساس كل معرفة، وله مراتب متفاوتة في الوضوح، و به تدرك الذات أنها تشعر، وأنها تعرف ما

---

1 ـ محمد سبيلا و نوح الهرموزي: **المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة**، مرجع سابق، ص555.

تعرف. لقد ذهب هاملتون في ذلك أن الأمر ليس بيسير علينا تعريف الوعي، لأننا إذا أدركنا بأنفسنا لا نستطيع أن ننقل وعينا إلى الآخر.[2]

إن وعي الإنسان بذاته، قاده لا محال إلى إدراك ذاته، من حيث هو موجود، قد قذف به في هذا العالم الأرضي الناقص، والذي هو عالمه هو دون غيره، باعتباره مصدر قلقه وشقائه. غير أنه يمكن أن يكون مكان سعادته التي يطمح إليها، وهو ما فرض عليه شيء من التدبر في أموره كي يعيش سعيدا، لذلك كانت حياة الإنسان عبارة عن مساءلة للوجود، تتضمن في طياتها، مواجهة للعالم أو الوجود، على ما هو عليه من الدهشة والتأمل، والتفكير في تنظيمه وإلغاء تناقضاته ونقائصه، هما جوهر الفلسفة كما عرفها سقراط.وكان العمل على تحقيق الصورة المثلى، الخالية من التناقضات، على أرض الواقع، تجسيدا للعالم المرغوب فيه، الذي هو ذاته الفعل التاريخي، المغيّر للحياة المشتركة للجماعة البشرية، سواء كانت هذه الحياة المشتركة جماعة محدودة مثل الأسرة والقبيلة والمدينة والأمة. أو الجماعة الشاملة، التي تنطبق على الإنسانية جمعاء، وفي كلتا الحالتين يعد فعلها فعل إنساني خالص.

لقد كان التاريخ الإنساني كل متكامل، وسلسلة مترابطة من الأحداث، تعبر عن فعلين أساسيين هما التفكير و العمل. التفكير في سلبيات واقع راهن، وكيفية تجاوزها، وعمل على تحقيق الصورة الجديدة لعالم نتصوره، لحظة العمل على تحقيقه، تجسيدا للمعيار الذي يطمح إليه الإنسان، والذي يتخذ من العقل أو الكمال مقياسا، متجاوزا نقائص العالم الراهن.[3]

2 ـ القصدية: إن ما يراد بالقصدية هو إرادة الفعل، وع معرفة الغاية والقصد من الفعل قبل القيام به. وبفضل القصدية يتميز فعل الإنسان التاريخي، عن أنماط السلوك الغريزي، أو المنعكسات الشرطية غير القصدية، والتي تتم بصفة آلية ديناميكية. والتي يقوم بها الكائن الحي بطريقة آلية غير واعية وغير قصدية، وهذا يعني أن الأفعال التي تحصل من فاعليها ، من دون قصد ووعي لا يمكن عدها أفعال تاريخية. فالقصد هو توجه النفس إلى شيء، أو انبعاثها نحو ما تراه موافقا، وهو مرادف للنية، وأكثر استعماله في التعبير عن التوجه الإرادي أو

---

2 ـ مجمع اللغة العربية: **المعجم الفلسفي**، مرجع سابق، ص 215.

3 ـ محمد بديع الكسم: **فكرة البرهان في الميتافزيقا**، ترجمة: جورج صدقني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991، ص 49.

العملي . والقصد الدال على التوجه الإرادي، فهو إما مشروع وإما هدف، فإن كان مشروعا دلّ على العزم على الفعل والانبعاث نحوه، وإن كان هدفا دلّ على الغاية التي من أجلها حصل التوجه.[4]

يمكن اعتبار القصد مرادفا للنية ، وقد أعد هذا الفعل شرطا سابقا لأي فعل من الأفعال يستحق فاعله الجزاء عليه ثوابا أو عقابا، حيث اعتبر الدين الإسلامي النية سابقة للعمل، والقصد معيار الجزاء، لقوله صلى الله عليه وسلم:« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».[5] فالإنسان لحظة القيام بالفعل، أو قبل القيام به يكون قادرا على القيام بالفعل أو تركه، وأن فعله نابع من حريته وإرادته، حتى يمكن أن يتحمل تبعات فعله، وعلى هذا الأساس يمكن أن نعد الفعل فعلا تاريخيا، لأن من ورائه قصد، حتى وإن تستر الإنسان الفاعل عن فعله، وجهر للناس بغير ذلك، بغية أغراض أخرى. ففعله يدخل ضمن الأفعال الإرادية التي لها قصد معين لوجودها، فكلما كان الفعل قصديا كلما كانت قيمته أكثر.

3 ـ الحرية: إذا كان الوعي صفة مميزة للإنسان عن باقي الكائنات الأخرى، بيد أن الوعي لا قيمة له بمعزل عن الحرية، فإذا كان الفعل واعيا من غير حرية فلا يكون بينه وبين الجمادات فرق، فيما تقوم به من أفعال. والحرية تعني إذن أن يكون الإنسان حرا ومخيرا في القيام بفعله، أو الامتناع عن الفعل، من دون أن يكون خاضع لإكراه أو إجبار، فتصبح بذلك الحرية قدرة على القيام بالفعل وعدم القيام به. فإذا كان من وراء الفعل إكراه داخلي أو خارجي، لن يكون الفاعل حرا، بل يكون أداة للقيام بالفعل فحسب، لكن عندما تتوفر الحرية تلزمه بتحمل المسؤولية، ومن ورائها دفع الضرر والتعويض.فحين يمتلك الإنسان وعيا بوضع معين أو فعل، ويمتلك القدرة العقلية على الحكم، بسلامته أو فساده، بجماله أو قبحه، ويمتلك في ذاته توقا، أو قصدا مثاليا، أن يحيا حياة يتطابق فيها الواقع بالمثال، ومن جهة امتلاكه صورة مثالية عن الحق والجمال والخير، يجد في نفسه حاجة ضرورية واستعداد إلى القيام بفعل ما، غير متعين في البداية، ثم ملحا في النهاية، من أجل مطابقة الواقع بالمثال. فإذا كانت الحرية مضادة

---

4 ـ جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج2، مرجع سابق، ص 193.

5 ـ صحيح البخاري، رقم 4682.

للاندفاع اللاشعوري أو الجنون، فإن المسؤولية القانونية دلت على حالة شخص لا يقدم على الفعل، إلا بعد النظر والتفكير فيه، سواء كان ذلك الفعل خيرا أم شرا، فهو يعرف ما يريد وما لا يريد، ولا يفعل أمرا إلا وهو عالم بأسبابه، لذلك قيل أن الحرية هي الحد الأقصى لاستقلال الإرادة العالمة بذاتها، المدركة لغايته. وقيل أيضا الحرية هي علة النفس العاقلة، وهذا يعني أن الفاعل الحر هو الذي يقيد نفسه بعقله وإرادته، ويعرف كيف يستعمل ما لديه من طاقة، وكيف يتنبأ بالنتائج، وكيف يقرنها ببعضها البعض، أو يحكم عليه.[6]

ومن أجل شعور الإنسان بحريته، يتعين عليه أن توجد أمامه مجموعة من الخيارات ليختار بينه، وليس خيار واحد فقط فيصبح إلزاما. فإذا توفرت الإمكانات والخيارات يتعين على الإنسان أن يقرر بحريته، وإرادته وقصده، فترجيح خيار واحد منها على حساب الخيارات الإمكانات الأخرى هو عين الحرية. لكن قد يقول قائل، ألا يجد الإنسان ذاته، في بعض المواقع محصورا أمام مخرج وحيد، فيضطر إلى نهجه مكرها، ويفقد حريته التي جعلتم منها شرطا للفعل التاريخي؟ فيكون الجواب، إنه مهما كانت أنواع الحصر والتضييق عليه لتقليل الخيارات المتاحة أمامه، فإنه سوف يظل أمامه اختيارات اثنان على الأقل، إما الفعل أو الامتناع عن الفعل، وهو يملك الحرية، في أن يفعل أو أن يمتنع عن الفعل.

4 ـ الشمول أو الجماعية: ويقصد منها شمول الفعل التاريخي للذوات الأخرى، غير ذات صانعه، مما يجعل هذه الآثار مشتركة، بين أفراد الجماعة البشرية المحيطة به، المحدودة كالأسرة أو القبيلة، أو الواسعة كالأمة . وقد تتسع إلى الإنسانية جمعاء . وهو ما يفهم معناه في قوله تعالى :«أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» المائدة الآية32. والحكمة المستنتجة من الآية الكريمة هي: قصة أولئك الذين ركبوا السفينة فاقتسموها، لكن بعضهم لأسباب خاصة أراد ثقبها، فلو تركوه يفعل ما يشاء بدافع الحرية، لغرق وغرقوا معه، ولو منعوه نجا ونجوا معه، لأن نتائج فعله لا تصيبه إلا هو فقط، بل تتعدى إلى كل من يتقاسم معهم ظروف الحياة.

إن الإنسان في اللحظة التي يهمّ فيها باتخاذ قرار ما، يبدو وحيدا، لا أحد يقرر نيابة عنه، أو يلزمه عنوة، غير أنه يظل ملتزما مع الآخرين عبر علاقات متعددة، حتى وهو يدرك أنه

---

6 ـ جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج1، مرجع سابق، ص 463.

وحيدا، فهو يؤثر فيهم ويتأثر بهم، ومن خلال هذه العلاقة المتبادلة، يظهر له الآخرين أنهم يضعون له الأطر المحددة لأنماط السلوك، على اعتبار أن هذا السلوك رغم طابعه الفردي، إلا أنه يصب في خانة الجماعة، ومنه يبدو الآخر كمحدد لمجالات السلوك، ومجالات الاختيار أمام الذات، من خلال توسيعه أو تضييقه لمجال حركتها. ومن جهة أخرى فإن الفرد مؤثر في مصير الآخرين، أي الجماعة التي ينتمي إليها، وكذا الجماعات الأخرى التي لها صلة بفعله. من خلال فعله أو امتناعه عن الفعل.

هذا الآخر الذي يقيد مجال حركة الذات، ليس فقط هذا الذي يزامنني ويعيش معي اليوم، بل حتى ذاك الذي عاش قبلي، وإلى حد بعيد أيضا. ذلك الذي لم يولد بعد، والذي سوف يعيش بعدي. وبهذا تتجلى اجتماعية، ونسبية وتاريخية، أي فعل إنساني. فحين يقوم الإنسان بفعل تاريخي، مستهدفا بواسطته تغيير واقع حكم بسلبيته، من أجل تحقيق واقع آخر، يبدو له في حينه محققا للكمال، فهو لا يفعل ذلك من أجل ذاته الفردية، لأنه لم يعرف نفسه إلا مع الآخرين. والمقصود بالآخرين إذن، أولئك الذين لا عيش له دونهم، أولئك الذين ينهل منهم تجاربهم وخلاصة جهدهم، ويعيش على آثارهم، ولا يُعرف عند الآخر إلا بهم (الآباء والأجداد)، وكذالك أولئك الذين هم امتداده في الزمن الآتي (المستقبل). قال أرسطو في وصف الإنسان وامتناع العزلة عنه: « إن الإنسان من طبعه حيوان مدني... ومن لا يستطيع الائتلاف، أو ليس بحاجة إلى شيء لاكتفائه بذاته، لا يمت إلى الدولة بصلة، وهو وحش أو إله».[7] وقد استدل على ذلك من أن الإنسان وحده ناطق من بين جميع الحيوانات، قادر على التعبير عن الخير والشر، في حين لم يكن للحيوانات غير الإنسان، سوى الصوت الذي يشير إلى اللذة والألم، وتحقيق الرغبات، وهي لغة طبيعة خالصة.[8] فالاجتماع الإنساني مبني على التكامل الوظيفي، والتماثل النوعي، خاصة في أساليب التفاعل والتفاهم والتواصل.

لقد أشار الشهرستاني (479 - 548هـ) إلى الطابع الاجتماعي للإنسان، في كتابه الملل والنحل قائلا: « ولما كان نوع الإنسان محتاجا إلى اجتماع مع آخر، من بني جنسه في إقامة معاشه، والاستعداد لمعاده، وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع

---

7 ـ أرسطو : **في السياسة** ، ترجمة: الأب أوغسطين بربارة البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1980، ص10.

8 ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

والتعاون، حتى يحفظ بالتمانع ماهو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له، فصورة الاجتماع على هذه الهيئة، هي الملة، والطريق الخاص الذي يوصل إلى هذه الهيئة هو المنهج والشرعة والسنة ، والاتفاق على تلك السنة هي الجماعة».[9]

ب ـ خصائص الفعل التاريخي المرتبطة بالذات الجماعية:

1ـ التراكمية: إن صفة التراكم في الفعل التاريخي، تعني ضم الإنسان لمنجزات وأعمال الأجيال السابقة، والمتعاقبة في بعدها الحضاري، إذا تحمل هذه المنجزات مكتسبات معرفية، متوارثة جيل عن جيل، إذ لم يبق هذا الإرث التاريخي والحضاري جامدا، بل يضيف له الفرد ترجمات أو شروحات أو إضافات، ليعطيه لمسة معاصرة لزمانه الراهن. فيضيف بذلك تجارب السابقين إلى تجاربه، لكن هذه الأجيال لا تحتفظ بكل ما صنعه أسلافها السابقون، فتثقل كاهلها به، بل هي تمتلك المعيار أو الميزان الذي تقدّر به ، والحرية في أن لا تحتفظ إلا بما يزيد في رقيها، ويوفر لها عيشة أرغد وأهنأ ممن سبقها.

2ـ الانتقائية: إن أي جيل من الأجيال الإنسانية، في المرحلة التي يطلق عليها بالتاريخية، لا يمكن اعتباره متلقيا سلبيا، ينهل من الأجيال الماضية، كل منجزاتهم وتجاربهم، ليحتفظ بها كما هي دون إضافات لها، ويثقل كاهله بحمل كل ما ينفع وما لا ينفع، بل هو يمارس عملية انتقاء لما يلائمه من تجاربهم، ولا يحتفظ إلا بما يزيد في رقيه، ويوفر له عيشة أرغد وأهنأ ممن سبقه، كما أنه بدوره يسهم برصيده من التجارب الجديدة في تحسين عمل وأداء الأجيال اللاحقة، وذلك حين ينقل إليهم تجاربه، إلى جانب ما انتقاه واحتفظ به، من تجارب الأجيال الماضية.

إن الذاكرة الجماعية شبيهة إلى حد كبير بذاكرة الفرد، وكما أن ذاكرة الفرد لا تحتفظ في وعيها بكل تفاصيل وحيثيات ما مرت به من أحداث وتجارب، خاصة الأليمة منها، بل تعتمد على ما أوتيت من نعمة النسيان، إلى إلغاء عدد كبير منها وإغفاله في عالم اللاوعي، من أجل فسح المجال أمامها، كي تسجل أحداثا جديدة، ما تزال تحمل لديها الأهمية والمعنى. غير أن كل هذا لم يكن ممكنا، لو لم يقترن بيقظة الوعي لدى الإنسان، ذلك أن وعيه بذاته وبعالمه،

9 ـ الشهرستاني: **الملل والنحل**، دار المعرفة، ط2، بيروت ، 1975، ص ص 38 ـ 39.

جعله يتميّز عن سواه من الأجناس الأخرى، التي بقيت مستسلمة لآلية الطبيعة، بأنه الوحيد الذي يعني أنه يعيش في عالم ناقص، وهو مدرك لنقصه، ضعيف في طفولته وفي شيخوخته، عاجز أمام المرض، يعاني من الفناء ومن الجهل...إلخ يشعر بالقلق من وجوده كذلك، غير راض على ما هو عليه في واقعه، مصمم على ضرورة العمل على تغييره أو تحسينه.

لم يكن وعي الإنسان بذاته وبعالمه، ليمنحه الراحة والطمأنينة خالصتين، بل يزيد من قلقه ومن معاناته الفكرية والجسدية أيضا، وذلك لأنه يحمله واجب إصلاح ذاته وعالمه، وتجاوز نقائصه وسلبياته، والارتقاء إلى درجة من الكمال، يشعر معها بزوال أسباب قلقه، لكن إلى حين.